رامبراندت

من خلال صوره الشخصية

سيقتصر حديثنا عن زاوية محددة ، من الثروة الضخمة التي اورثها رامبراندت للانسانية ، سجل فيها دخيلة نفسه ، و روى قصة حياته . هذه الزاوية ، هي مجموعة صوره الشخصية التي لخص فيها فلسفته و رؤياه الفنية ، و انعكاسات الاحداث التي مرت به خلال ما يزيد على اربعين عاما .

لن نتكلم عن الفنان الذى توصل عن طريق المألوف ، لاعطائنا صورة عن الكامل و السامي ، و عن طريق " المضيء المظلم " الى اكتشاف النور الذى ينبعث من الاشياء نفسها و يشكل مادتها . و لا عن مقدرته التكوينية الفائقة في تنظيم الاشكال ، و تنويع الايقاع ، و تواتر الفراغات ، و الظلمة و الضياء ، معتمدا في نفس الوقت ، صرامة الهندسة ، و غنائية الموسيقى ، في اعمال ترضي الفكر و الحس . و وجد في التتابع المستمر بين المظلم و المضيء ، المرئي و اللامرئي ، طريقا لتلخيص حركة الكائنات ، و كشفا للغموض الذى يحيط بالاشياء .

كما لن نتطرق لرسومه السريعة التي عبر فيها بيد عليمة ، تريد ان تنسى مقدرتها ، عن جوهر المرئيات ، و لا عن لوحاته المحفورة التي استنفذ فيها كل طاقات هذا الفن ، و التي نشاهد من خلال مراحل العمل المختلفة ، مدى ما كان يهدف اليه رامبراندت للوصول الى الوحدة في الاثر الفني ، طارقا كل نوع من التضحيات ، بدون ان يدع للمهارة فرصة للسيطرة على الفكر ، مستخدما كل وسائل التعبير ، لاظهار ما هو " فريد " في كل ما يراه ، او يحلم به ، خلال اسفاره الخيالية .

فرحلات رامبراندت كانت تتحقق في احلامه بالشرق ، بالاراضي المقدسة . و كانت امستردام حيث استقر ، بعد سنوات الدراسة التي قضاها في ليد ، قد وفرت له كل ما يبتغيه خارج هولندا .

و المرافيء عادة مستودعات كبيرة لاشياء عجيبة . و امستردام كالبندقية تتململ تحت سماء رائعة التبدل ، هذه المدينة التي تخترقها القنوات البحرية ، كانت تستقبل رجالا من كل بلد ، و كل لون ، يختلطون فيما بينهم بأزيائهم الغريبة . و كانت المراكب تفرغ حمولاتها من الاسود و الفيلة ، و طيور الفردوس ، و كذلك الاحجار النادرة و العطور و الاقمشة ، و الفاكهة ، و كل نوع من الثروات .

كان ضباب الشمال يزيد في روعة هذا الشرق المتمثل في منتجاته و أزيائه ، وكان رامبراندت يشبع نهمه في تأمل فتنة هذه المنتجات المتنوعة ، مستعملا وسيلته الفنية الفذة " المضي المظلم ".

هذا الفنان المقيم ، الى جانب تجواله في ارصفة الميناء ، و في احياء استردام الفقيرة ، وجد طريقة اخرى لرحلاته ، باقتنائه الاثار الفنية ، التي كان لها سوقا كبيرة في البلاد الواطئة . و هكذا توفرت له الوسيلة لكي يتوغل في الماضي و كذلك في اقاصي القارات . كان قدماء الايطاليين ـ يفدون اليه في لوحاتهم ، كما تفد اليه أنفس الاعمال من كل نوع ، حتى منمنمات الهند كانت تشير له بان مخطلبات الفن عالمية ، و تؤكد قرابتها بعبقريات كل الازمان .

كانت الاثار الفنية التي جمعها و أنفق في سبيلها الاموال الطائلة ، بمثابة الاستاذ و المرشد ، تعلم منها اسرار الخطوط و الالوان ، أكثر مما كان قد تعلمه من الفنانين العاديين الذين تتلمذ عليهم في البداية . كما فتحت له التحف التي اكملت مجموعته ، من اقمشة نفيسة و أصواف و أسلحة ، و نباتات ، آفاقا واسعة لرحلات خيالية في كل الاصقاع التي تعلق بها الهامه و انجازاته الفنية .

كان معاصرو رامبراندت يتهمونه بالشرود ، غير انه كان في الحقيقة ينسى الضرورات العملية ، لانصرافه كليا عن العالم الخارجي الى عالمه الخاص . فاذا كان لايجيب على ما يطرح عليه من اسئلة ، ذلك لانه كان يريد الاجابة عما يطرحه هو نفسه من اسئلة .

لذا كانت تشاهد في عينيه ومضات غريبة . و كان طيلة حياته التي ربط فيما بينها و بين اللانهاية يراقب ذاته ، رفيقة دربه ، و يكتشف فيها ذلك الغريب المجهول . فصوره الشخصية العديدة ، تضعنا دوما امام انسان لايتبدل من عام لعام فحسب ، و انما من ساعة لاخرى .

و نجده يبحث عن نفسه ، في ميله لتغيير عصره ، و مكانته ، و بلده . فنراه معتمرا بعمامة او قلنسوة ، متزينا باحجار كريمة ، أو مرتديا زي صعلوك . هنا يشبه لصا شقيا ، وهنالك يشبه المسيح . أليس هذا التفكر ضرب من ضروب التنقل و الترحال ؟ .

../..

و لقد منعته تلك الصلات التي أقامها مع اللامرئي ، من اضاعة وقته في العلاقات الاجتماعية . فهو بعكس روبنز لم يكن دبلوماسيا ، و انما كان ينصرف الى همومه الداخلية الحميمة و لتأملاته . و كان يعجز عن تنظيم نتائج نجاحه وفق منهج عملي ، لذلك وجد نفسه بسرعة مضطرا لرفض كل اعمال التوصية ، فبعد السنوات التي تلت مجيئه الى استردام ، و التي كان ينتج فيها اعمالا بالجملة ، قرر ان يفضل الطريق الصعبة على الطريق السهلة ، لكي لا يخضع لاذواق الآخرين ، و يتفرغ لارضاء نزعاته الفنية المحضة .

في سبيل هذه الحرية ، أهمل اتصالاته بمن حوله ، و زهد في كل شيء ، ما عدا جمع الاثار الفنية ، و لم يعد التطلع للمجد و الشهرة يستهويه ، و لا المال يجذبه .

كان كل همه ان يعمل بحرية ، لذلك منع أي كان من أن يقتحم محترفه ، و كان يرفض استقبال أي انسان ، مهما علا شأنه ، في الاوقات التي كان يتفرغ فيها لابداعه .

بهذه التصرفات فقد صداقاته بين الاغنياء و الاتقياء ، و ضيع فرص تكليفه بالصور الشخصية التي كانت تدر عليه الاموال ، مفضلا التعلق بمجتمع البسطاء و المجهولين ، الذين كانوا ينظرون مثله ، و لكن بوسائل اخرى ، الى ماوراء الحاضر و الواقع الملموس ، كرجال الدين و الفلاسفة ، اولئك الرحالة في آفاق الفكر ، المنكبين على الكتب ، الباحثين عن اسرار الحياة .

و لكن رامبراندت ، هذا المحلل العميق لالغاز الحياة ، لم تكن له قراءات ، سوى الكتاب المقدس . ذلك ما يؤكده الكشف الذي نظم ، بعد وفاته ، لمحتويات محترفه ، حيث لم ترد سوى ادوات العمل و الملابس . فهو من خلال كتابه الاوحد ، كان لا ينفك يكتشف الجوهر ، فيعكسه في انجازاته المعبرة عن أكثر تجاربه الانسانية . و قد وجد هناك ، بالاضافة لكثير من مواضيعه ، اسلوبه الجاد العميق ، و تطوراته ، و كل ذلك المزيج الصلب من البساطة و السمو .

منذ عصر النهضة اتجه الفن لتمجيد الانسان ، الانسان المنتصر ، كان الفن يتحدث الى الانسان ، فلمن كان رامبراندت يتحدث ؟ ان المتأمل في لوحاته ، وبخاصة في صوره الشخصية ، لا يقف في موضع المنتصر ولكن في موضع المتهم .

ورامبراندت لا ينظر الى ظواهر الاشياء ، لكنه يصور الاشياء ليحررها من مظاهرها الخارجية . ومن هنا يأتي التصاقه الشديد باللون الموحد ، فهو ليس ملونا على طريقة فناني البندقية أو فيرمير ، وانما هو الشاعر الفذ الذي يكتفي بعدد محدود من الالوان يوزعها باقتصاد بالغ لتتفجر من سمرة الظل ، (انه في ذلك قريب من ليوناردو ، ومكيلانج في السكستين ، وفويا في منزل الصم) .

من هنا نشأ ولعه بالحفر الذي يتلاءم مع رؤياه الخيالية . ومن هنا ذلك العدد الكبير من صوره الشخصية التي تمثله احيانا بواقعية نادرة ، وأحيانا اخرى تبتعد ، بدون ان تضيع ملامحه ـ فتنفصل عن كل ما هو أرضي ، لتبدو شيئا آخر يكتنفه الغموض والصمت ونداء المجهول .

ان مستقبل انسان مبدع يتحدد سلفا في طفولته . فالنشأة الدينية التي نشأها تركت في نفسه القدرة على الصبر تجاه المصاعب ، والعطف على الضعفاء ، بدون ان يكون ممارسا للطقوس الدينية . ولكنه لم يكن يشعر باطمئنان النفس كما كان يشعر عندما " يرسل الله له ملاكا صغيرا " يلهمه في عمله كما يقول كورو فيما بعد .

ملاك الالهام هذا كان يزوره باستمرار ، حتى ان اهتزاز الاجنحة غدا في حياته أمرا طبيعيا ، ملأ اعماله ، حتى أننا لنقف مشدوهين أمام غزارة انتاجه الملهم ، هذا الانتاج الذي لم توقفه جملة المصائب التي تعاقبت عليه ، بل بالعكس كان فقده لوالدته ثم أبيه ، وأطفاله في سنيهم الاولى ، وزوجته المحبة ساسكيا ، وفي النهاية رفيقته الثانية وابنه تيتوس . كل ذلك لم يكن ليقنطه او يخمد عزيمته ، بل أضفى على عمله ظلالا جديدة أكثر عمقا وجلالا .

وكانت خلافاته مع السلطات وتخلي كبار القوم عنه ، وتقلص حياته الى دائرة منزله الضيقة ، وعدد من تلامذته وأصدقائه الخلص ، الى جانب عدم فهم الجمهور الكبير لفنه ، وضياع مجموعاته من الآثار والتحف الفنية ، من الاسباب التي حمته من مشاكل المجد ، وتركت له المجال للعمل بهدوء ، بعيدا عن مستلزمات الشهرة ، وسموم الزهو والمظاهر الباطلة .

../..

ولم يبدل ذلك من اتزانه الفريد ، وانما زاده تعلقا بعمله ، حتى ليقال أنه حرره من كل هم دنيوى ليتفرغ بقدسية الفن .

توالت عليه المصاعب من كل حدب وصوب ، تناقص عدد زبائنه تدريجيا ، وفقد وسائل الربح ، ولم يعد القوم يتحدثون عن كل عمل جديد ينتجه ، كما كانوا يفعلون في السابق ، ولكن هذه الفترة كانت أكثر فترات فنه صفاء وسموا .

واننا لنجد انعكاسا رائعا لمأساته في صوره الشخصية التي نافت على مائة صورة ، بين لوحة زيتية أو محفورة أو رسوم سريعة ، والتي تعتبر الى جانب قيمتها الفنية والانسانية السامية ، وثائق تنبؤنا عن هذا الانسان الكبير . هذا الشريط يروى قصة حياة فنان ، منذ اعوام الشباب ، حيث تختلط الرصانة بفورة الاحلام ، الى السنوات الاخيرة ، عندما غابت الابتسامة عن الشفتين ، وبدت النظرة أقل اتجاها نحو العالم ، وأكثر تسلطا على أغوار النفس الداخلية ، وتلك الملامح التي تجعدت وتهدلت لم تفقد شيئا من قوة تصميمها .

واذا كان قسم من هذه الصور يعكس مأساة الفنان ، الا انها ليست صور رجل منهك القوى ، مستسلم للاقدار ، ولكنه الرجل الشجاع الذى يتحمل تحولات الحياة بصبر وجلد ، ويؤمن قبل أى شيء آخر بأن له رسالة . هذه الشجاعة تبدى في النظرة النفاذة وفي العزم الصبور ، وحتى في ملمس اللون وحركة الريشة العصبية .

وهكذا تفجرت الاعمال الفنية ، من هذه الحياة الشبيهة بحياة الرهبان ، لتدلنا على الرجل ، بدون أن يشوبها أى دليل معاصر يمكنه أن يذكر بالعرض السطحي الذى يعتزج بكل حياة .

فاذا تأملنا هذه اللوحات التي تعود أولاها الى سن العشرين ، وآخرها الى سن الثالثة والستين ، لاحظنا أن الوجه يحافظ دوما على نفس التعبير الثابت المتسائل المستفهم ، وذات الرصانة التي رافقته من فترة الشباب حتى أيامه الأخيرة .

../..

قد لا نجد بين المصورين الذين حللوا تبدلات تعابيرهم الشخصية ، فنانا آخر تأمل المراحل المختلفة لحياته ، أكثر منه فضولا وعمقا . فالتاريخ يحدثنا عن رافائيل و روبنز ، فان ديك وفيلاسكيز وفويا و أنجر وكوربيه وسيزان وفان قوغ . كلهم صوروا انفسهم في لوحات شخصية و في اعمار مختلفة . ولكن تساؤلهم لم يكن بهذه الغزارة و هذا الاستمرار . فلم يمر عام لم يقم فيه رامبراندت بتسجيل صورته ، متفحصا ، محاولا الوصول الى أغوار ذاته بواسطة اللون أو الرسم أو الحفر ، وهو الرجل الصامت البعيد عن الثرثرات الكلامية حول فنه أو حياته الخاصة . لم يتعب من الغوص في أعماق نفسه ، مبدلا من مظهره و ردائه و غطاء رأسه ، من القبعات المختلفة و الريش و الاقراط و الخوذات و السلاسل ، و الزنانير الذهبية ، مما يضفي عليه مظهر متشرد أو أمير شرقي أو زير نساء . وهو يرضى بنفسه بلا تفاخر ولا قسوة . يرضى بها كواقع لم يكن له فيه خيار ، ولا يمكن تجاهه التحايل أو الخداع . ويعلم أنه في هذا الوجه الذي يعرفه تمام المعرفة ، توجد دوما خفايا مجهولة لا يمكن كشفها .

الا أنه ينظر الى نفسه ، الى الشبح الماثل أمامه في المرآة بلا رهبة ، في مبارزة تجرى بدون شهود ، فاذا ابتسم مرة في وجه قرينه ، نجد ان ابتسامته ليست سعادة كلها وحبورا . حتى في فترة الصبا ، التي تميزت بشفتين شرهتين ، نلاحظ وضوح النظرة الثاقبة الرصينة ، ونرى في اليد القصيرة المكتنزة ملامح يد مفكرة أكثر منها حسية ، تستجيب لأوامر العقل ، وتدلل على ان سيطرة الفنان على نفسه ، وان كانت ضعيفة في تسيير أعماله المالية ، الا أنها كاملة في كل ما يتعلق بفنه .

وعندما يبلغ الخمسين ، ثم الستين ، وتضمحل كثافة شعره ، ونضارة لونه ، وتتهدل وجنتاه ، ويبدو قريب الشبه من والده ، يكثر من تصوير نفسه على هيئة قديس أو راهب ، صور تكاد تكون لا مادية ، تحوم فوقها ظلال جنائزية ، فالحدقتين المشعتين كنافذتين ، تنفتحان على عالم آخر ، باستسلام شجاع تارة ، ورعب ، أو سخرية ، او سأم تارة اخرى .

فاذا ما أقبل المساء على مرسمه المقفر الذى لم يبق فيه سوى أعماله العظيمة ، تملأ الزوايا و الجدران ، نظر الى مرآة غارقة في الظل ، يتأمل وجه الاحزان ، فيطرد منه كل ما يتعلق بالارض ، ويقذف في وجه المجد بصورته التي تنفجر بضحكة مخبولة (صورتـــــه الشخصية الموجودة في متحف كولونيا) .